الفصل الاول

آثار الدماء

« وضعت الحرب اليابانية الروسية أوزارها الآن . تلك الحرب الهائلة التى جرى فيها الدم أنهارا ورجع بعد ذلك مئات الالوف من هؤلاء الضباط والجنود الامناء أصدقائى الى أوطانهم متوجين بأكاليل النصر والامة ترحب بهم شاكرة لهم بلاءهم فى الحرب فما أجمل مايستقبل به المنتصرون وما أسعد منظرهم ! على أن قلوبهم ليست مملوءة بالفرح والسرور فقط بل كان يختفى خلف ابتساماتهم هذه زوابع حزن شديد وكانوا يجبرون على اخفاء دموعهم التى كانوا يذرفونها على رفاقهم المتروكين خلفهم مدفونين فى ميادين منشوريا البعيدة مؤدين بذلك واجب الطاعة والامانة للوطن اليابانى وميكادو اليابانيين وهم ليسوا أحياء فيشاطرهم اخوانهم فى السرور بالعودة الى الاوطان منتصرين وكنت ترى بعد انتهاء حرب الصين مع اليابان التى حصلت فى سنة ٩٥ عند ما أمر قسم عسكرى بالعودة الى الوطن . عندها توجهت الجنود لزيارة مقابر اخوانهم الذين راحوا ضحية فى ميدان القتال لتقديم الوداع الاخير لهم . اذ تقدم أحد الجنود من الصفوف وضرب حجر مقبرة صديقه الحميم قائلا والدموع تتساقط : « عزيزى كانو » انى راجع الآن الى اليابان وسأقول لقومى أننا بعد أن قابلنا العواصف والاخطار معا وحاربنا خلال المقذوفات المتساقطة علينا جنبا لجنب لقيت حتفك انت بدلا منى وأنى أشعر أنى لم أصب فى

ذلك مازجا الضبط والربط الشديد مع اخوة المحاربين المتينة كأن الجميع آباء وأولاد واخوة وبالنظر الى هذه النقط فنجاح أو خيبة الجيشين يمكن أن يظهر جليا من قبل المحاربة وقد فاه بذلك المسترجار فلدالژائر الروسى وظهرت حقيقة ماتنبأ به بعد

ومع كون جيشنا شديد النظام ولكنه يوجد تآلف بين الدرجات العالية والواطية فيه وكانت الجنود تغبط بعضها على تقديم نفسهم على هيكل وطنهم فروح انكار النفس كانت منتشرة بينهم بدرجة عالية وهذه هى غريزة جيش (يا ماتو) الفطرية وقد ظهرت روح الامة الرفيعة هذه فى محاصرة بورت ارثور خصوصا بكل قواها فاذا حصرنا التلف المادى الذى لحق جيشنا المحاصر لها لوجدناه هائلا ولكن لو لاحظنا أيضا النشاط الروحانى الذى استمر فيه لوجدنا تاريخنا عظيما اذ انها ضمت فخراً جديدا الى تاريخ جيشنا وانك كنت ترى أقل جندى يحارب فى الميدان ببسالة فائقة مقابلا الموت كأنه متوجه الى أهل بيته وكان يصحب هذه الشجاعة حنو وانعطاف وكانوا يحترمون ويتبعون ما يملى عليهم الشرف والواجب معا فى جميع خدامانهم صارخين بانزاي (هتاف دعاء) الى جلالة الامبراطور فى وقت موتهم فعمل روح السامورای (المحارب اليابانى القديم) هذا هو مخالف بالمرة لسلوك روح الجنود الروسية التى تظهر فى ميدان القتال ناظرين فقط الى النياشين والدراهم التى أمام أعينهم أما اليوزباشى ساكورای فهو الاخ الاصغر لصديق المستر شيكويشيو ساكورای وكان له حظ شخصى فى رواية بورت ارثور المحزنة وهو منابط شجاع وكاتب ليس بقليل القدرة

تركك وحدك هنا ورجوعي وحيداً سالما . ولكن كن مسروراً ياعزيزي « كانو » فان شبه جزيرة (لياوتنج) صارت ملكنا الآن . وعظامك حينئذ تضمها أرض من اليابان المحبوبة . فكن مستريحا . أفهمت « يا كانو » ؟ ها أنا ذاهب »

تلك هي الكلمات التي فاه بها جندي يودع روح رفيقه من صميم فؤاده كما لو كان حيا ساعيا في تعزية هذه الروح الباسلة العزيزة وبعد ذلك استمر برهة صامتا ثم مسح دموعه وصب مما يحمل ماء على قبر صديقه ورجع متباطئا الى مكانه في الصف . فمن ذا الذي لا يرسل الدموع مشتركا في الشعور مع هذا الجندي البسيط الفكر ؟

نعم . العودة الى الوطن لاسيما بعد النصر هي بدون شك من أعظم الافراح بل هي أعظمها . ولكن كيف يتحمل الانسان الافتراق وهو شديد التأثير ؟ وعلى الاخص عند ما يقف قبل الرجوع الى الاهل والخلان أمام قبر فريد لأحد رفقائه الجنود الذي كانت الرابطة بينهما أشد وأمتن من رابطة الاخوة لاشتراكهما معا في تنفس رائحة دخان البارود الكريهة واقتحامهما أمطار الرصاص الهاطل ليلا ونهاراً ؟

بعد أن رجعت هذه الفرقة الى الوطن العزيز علمت ان شبه الجزيرة ذاك قد نزع منهم فيا أسفا عليك يا « كانو » مت مبتسما بالوطنية معزيا نفسك بأنك في أرض يابانية فهل مت لغير قصد عال . وهل كانت شهرتك الذائعة كاذبة ؟ أي غضب أم أي خيبة يمكن تصورها الآن إذا تحقق ان جثة « كانو » الامين لم تدفن في أرض يابانية كما كان يشتهي !

لقد أجبرت المانيا وفرنسا اليابان بعد تلك الحرب المشهورة على اخلاء كوريا وبعد ذلك احتلتها الروسيا مع منشوريا ووفاق مع الصين مما أدى الى الحرب الاخيرة بعد مداولة عشر سنين بين اليابان والصين بدون جدوى . لقد مضت عشر سنين ونحن نترقب سنوح الفرصة لمعاقبة الظالمين حتى أتى اليوم الذى نزل فيه الجيش الامبراطورى اليابانى العظيم الى البر نفسه والمكان عينه الذى حصلت به الموقعة اذ ذاك وهناك حملت تلك الجثث لدفنها فى محل اشتروه بدمائهم وكان لهم أولا ثم نزع منهم ثانيا وعند مانزلت الى ذاك الموضع وعلمت أقدامى على الارض صحت هذه ولا ريب أرض يابانيه بما انها صبغت بدم جنودنا البواسل قبلا وكنت أبحث بامعان عسى أن اعثر على بعض آثار لا ولئك الشهداء الاولين ولكنى لم أر شيئا يدل على مقابرهم وان كنت متحققا أن أرواحهم كانت معنا دائما تهدينا فى الوقائع وتحركنا لكى نعمل بكل استطاعتنا لبلادنا ومليكنا

ولقد كنت أحث الجنود الذين هم تحت امرتى بالكلمات الآتية

« ان تحت أقدامكم أديما هو من أجساد اخوانكم السابقين . أما أرواحهم فانها لم تزل تحوم فوق رؤوسكم غير واجدة الراحة الأبدية . فالابطال يموتون ولكن أرواحهم خالدة . وهى تحارب بجانبكم الآن وان كانت فى عالم آخر »

وببركة السماء وصلاح جلالة المليكادو هزمت قواتنا الامبراطورية العدو براً وبحراً وتوج قتالنا بنجاح باهر لم يماثله آخر وصار لنا كرامة ومركز نفتخر بهما بين العالم ولو أن هذه الارض التى نزعت منا ردت الينا الآن

وتلك المقابر التي تسكنها جثث هؤلاء الرفاق السابقين أصلحت وصارت تزار فاننا لم نحصل على كل ذلك الا بعد اهراق دماء أضعاف ما سقيت به تلك الاراضى من عشر سنين مضت والنفوس التى ضحيت أخيراً كانت أضعاف التى ضحيت أولا ولكن ضباط وجنود جيشنا كانوا كرجل واحد أتوياء فى الحق بواسل أمام عدو هائل لا يقفون الا اذا ظفروا وكانوا مستعدين للموت راضين به لهذا الغرض العظيم وقد أمضوا ثمانية عشر شهراً كلها متاعب وحرموا من كل طيب بين جبال (لياوتنج) وفى ميادين (منشوريا) وعلى بحر اليابان والبحر الاصفر وهذا هو الفخر الذى تتقاسمه ذراريهم الى الابد والمجد المخلد على صفحات التاريخ

وانى أترك تدوين أخبار الحرب الروسية اليابانيـة الى أقلام مؤرخين محنكين وكتاب قادرين . أما أنا فأذكر هنا باعتبارى محاربا صغيرا أشترك فيما يمكن أن يسمى أشد بل أفظع واقعـة (أعنى بورت ارثور) فى تاريخ الحروب والفنون العسكرية وقد فكرت فى أن أسطر بيدى التى لم تعتـد تحريك القلم (بيدى اليسرى) مـذكرات عن الذى جربته بنفسى فى محاصرة (بورت ارثور) حتى يتيسر للذين لم يسبق لهم الوجود فى أماكن تماثلها أن يتصوروا بأنفسهم هذا المنظر الهائل على قدر الامكان »